كلمات ذوقية

أو

رسالة الأبراج

الكلمات الذوقية
للإمام الشهيد السهروردي قدس الله روحه

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) قال: هذه كلمات ذوقيّة ونكات شوقيّة كتبت بالتماس بعض إخواننا، إخوان التجريد.

(٢) اعلموا، إخوان التجريد ـ أيّدكم الله بنور التوحيد ـ أنّ فائدة التجريد سرعة العود إلى الوطن الأصليّ والاتصال بالعالم العلويّ. ومعنى قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ «حب الوطن من الإيمان» إشارة إلى هذا، ومعنى قوله تعالى في كلامه المجيد ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾[1]، فالرجوع يقتضي سابقة الحضور، ولا يقال لمن ما رأى مصر ارجع إلى مصر. وإياك أن تفهم من الوطن دمشق أو بغداد وغيرهما، فإنهما من الدنيا، وقد قال الشارع «حب الدنيا رأس كل خطيئة».

(٣) فإذا عرفت معنى وطنك، فاخرج من ﴿الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾[2]. فما فائدة التجريد والخفّة، إن لم يكن حاصله الوصول؟ من جرّد صورته من علائق الطبيعة ولم يسع في الوصول إلى عالم الحقيقة، كان كمن ركب دواءً لعلاجه وإصلاح مزاجه، ولم يتناول منه شيئًا.

(٤) نعم! المطيّة التجريد. لو شرع بعده في البروز عن الستّة، وترك العشرة، وقطع الأربعة، والتوجّه إلى عالم الأحد، استحقّ الوصول، الفوز كلّ الفوز لاخوان التجريد، إذ تجريدهم إلى نور التوحيد.

---

(١) سورة الفجر، الآيتان: ٢٧ ـ ٢٨. (٢) سورة النساء، الآية: ٧٥.

(٥) قد أشرق شعاع شمس اللاهوت على سطوح الإمكان. فإلى متى تمكثون في ظلمات زوايا الأجسام؟ تعبدون الهياكل والجسمانيّة كالأصنام؟ طوبى لمن خرج من خلال بدنه، ودخل كعبة الإيمان، وظعن عن ظلمات العمى والحرمان. فعليكم بالباب وملازمة الجناب، فإنّه باب ما خسر طالبه ولا خاب قاصده.

(٦) سلام على نفسٍ تركت وكرها، وتوجّهت إلى ربّها؛ تركت ثقل الأشباح، وفرحت بخفّة الأرواح؛ قطعت مسالك الناسوت، ووصلت إلى منزل اللاهوت؛ وتخلّصت من قيود العشرة، وتبجّحت بصحبة العشرة؛ وارتقت من حضيض الاحض إلى الأوج الأقدس؛ فنالت ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(٧) طوبى لقومٍ مقامهم في عالم العبوديّة، ومطارهم في فضاء القيّوميّة. ربّنا! اجعلنا ممّن تشبّه بأبيه، وقطع نسبة أبويه؛ لا يركن إلى كينونته في عالم الأركان، ولا يأنس إلى مجالسة سكّان المكان والزمان، كي لا يتحبّس في سجّين الحدثان.

(٨) واعلم أنّ «حبّ الوطن من الإيمان». إن كنت من الرجال، فلا تقنع بمجرّد القيل والقال، ولا تضيّع أنفاسك النفيسة في استيفاء اللذّات الخسيسة. إلى متى تنغمس في الرمس وتفوتك أنوار أشعّة الشمس؟

(٩) قد أفاضت الأنوار على القوابل، وأصلحت أمزجة الهياكل. وكون الأكمه يجحد ولا يشاهد نوراً غير قادح في إفاضتها. ومن شأن العنبر العبق أن يفوح، فيعطّر مجالس الأنس ومراقب طالب القدس. وحرمان المزكوم عن رائحته اللذيذة، لشدّةٍ حصلت في مشامّ دماغه، لا يقدح في طيبه شيئًا.

(١٠) لو انقشع غيم غموم المهلكات، وارتفع سحاب سموم المتلفات، لرأيت ما لا رأيت. أسّس سلّماً ست عشرة درجة، واصعد إلى سطح سماء القدسيّات، لتتّصل بالروحانيّات إلى العقليّات.

(١١) ثمّ اعبر إلى كعبة الأزل، وقل ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[١] وانشد:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٩.

رقّ الزجاج ورقّت الخمر فتشابها فتشاكل الأمرُ
فكأنها خمر ولا قدح وكأنها قدحٌ ولا خمرُ

(١٢) وأيقن أنّ من حلّ الرمز، فظفر بالكنز. ذوق، ثمّ شوق، ثمّ عشق، ثمّ وصل، ثمّ فناء، ثمّ بقاء. وليس وراء عبّادان قرية، وعبّادان غير متناهية.

(١٣) واعلم ـ أيدك الله ببصيرة منه ـ أنّ القمر عاشقٌ صادق لملك الكواكب وسلطان النيّرات السيّارات بعبوره ميادين السماوات، قاهر الظلمات بالنور، حافظ الأزمان والدهور، باسط الخيرات على سطح الأرض، مخرج المواليد من القوّة إلى الفعل، سيّاح الوجود، حافظ آيات الربّ الودود.

(١٤) ومن ذات العاشق المسكين التوجّه إلى جناب معشوقه والتوصّل إلى وصل محبوبه. فلهذا صار القمر سريع السير، لا يمكث في منزل إلا يومين، ويسير سيرًا حثيثًا حتّى يرتقي من حضيض الهلاليّة إلى أوج البدريّة.

(١٥) فإذا قارب المقابلة، انعكست إلى ذاته الأشعّة الشمسيّة، فأضاءت ذاته بأنوارها بعد ما كان مظلمًا، واستنار بأشعّتها بعد ما كان مقتمًا. فنظر إلى ذاته، فما كان منه شيءٌ خاليًا من أنوار الشمس. فقال «أنا الشمس»!

(١٦) فأبو يزيد (البسطامي) و(حسين بن منصور) الحلاج، وغيرهما من أصحاب التجريد، كانوا أقمار سماء التوحيد. فلمّا أضاءت أرض قلوبهم بنور ربّهم، باحوا بالسرّ الواضح الخفيّ فأنطقهم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾(١) والحق ينطق على لسان أوليائه.

(١٧) عليك بحلّ الطلسم البشريّ، فإنّ كنوز القدس كامنة فيه. فمن حلّه، ظفر بالمقصود ووصل إلى المعبود، وارتقى من هبوط الأشباح إلى شرف الأرواح، وصعد من حضيض أسفل السافلين إلى أوج أعلى علّيين، وعاين الجمال الأحديّ، وفاز بالوصول السرمديّ، ونجا من شبك الشرك.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٢١.

(١٨) وطريق حلّه أن تعتصم بحبلٍ ذي شعبين تقيّد به النمر والضبع. ثمّ اعبرْ على ثلثمائة وستّين بحرًا، ثمّ على مائتين وثمانية وأربعين جبلاً المربوطة بأربعة جبال الموضوعة في ست جهات. ثمّ بعد هذا تصل إلى قلعةٍ حصينةٍ، ذات عشرة أبراج، ساكنة على قلل الجبال، المتحركة لحركة ظلّ الشاهق العظيم.

(١٩) فترى بالبرج الأوّل شخصًا فصيحاً صاحب البيان، رطب اللسان، عنده أنواع المطعومات وأصناف المذوقات. فإيّاك أن تغترّ بعذوبته، إذا رأيته؛ أو تلتفت إلى حلاوته، إذا عاينته! فإنّ عُقبى عذوبته غمّ، وآخر حلاوته سمّ؛ ورُبّ شهوة ساعةٍ أورثت حزنًا طويلاً.

(٢٠) فإذا عبرت (من البرج الأوّل) وصلت إلى البرج الثاني. وجدته ذا بابين صغيرين موضوعين في طول القلعة، وطريق الصعود (إلى هذا البرج) صعب لا يتيسّر إلا بسلّم الهواء. فإذا صعدت، رأيت شخصين ساكنين على قباب القلعة، عندهما أنواع الاراييح الطيّبة يفوح منها روائح العنبر الأشهب والمسك الاذفر. فاحذرْ كيلا يحجبك الاراييح الجسمانيّة عن النفحات الروحانيّة.

(٢١) فإذا عبرت (من البرج الثاني) وصلت إلى البرج الثالث الموضوع في عرض القلعة، ذات منظر بين لوزتين حواليهما أطناب أبريسم وبينهما تلّ، وفي كلّ منظرةٍ سرير معمول من عاجٍ وآبنوس، فوق كلّ سريرٍ شخصٌ رشيق القدّ، عقيق الخدّ، لطيف الشمائل، ظريف الخصائل، ينظر بين حسن الأنوار، فيحسن الأخبار. لا تقفْ عند منظره البهيّ ومخبره الشهيّ. فاعبرْ عنه عبور العاشق إلى الجمال الاحديّ.

(٢٢) فإذا عبرت (من البرج الثالث) وصلت إلى البرج الرابع الموضوع على أطراف القلعة، ذات قصرين حصينين؛ يحيط بكلّ قصرٍ سور غضروفيّ. يجذب (هذا البرج الرابع) الأصوات الطيّبة من الآفاق إليه (أي إلى نفسه)، ويجتمع عنده من النغمات الرخيمة والألحان اللذيذة. فاجتهد أن تعبر عنه.

(٢٣) فتصل إلى البرج الخامس المحيط بالكلّ، مُدرك الضدّين، الصلابة واللين.

(٢٤) وبعده البرج السادس، أوّل الأبراج الجوّانيّة. ترى حجرةً منوّرةً مضيئةً بأنوار أشعّة الأبراج الخمسة.

(٢٥) والبرج السابع خزانة لهذه البروج.

(٢٦) ثمّ البرج الثامن الذي يجتمع فيه متاع الحجر الجوانيّة والبرّانيّة، ويفرق به بين الصديق والعدوّ.

(٢٧) والبرج التاسع المفضض الذي يختلف اسمه بحسب ما ينعكس إليه من أشعّة الكواكب والقمر.

(٢٨) والبرج العاشر خزانة بعض الحجر الجوّانيّة.

(٢٩) فإذا قطعت هذه المنازل وعبرت هذه المراحل، وصلت إلى بلاد الثبات والتمكين. فأوّل ما ترى شيخ كبير القدر، أحسن وأنور من البدر. مع أنه في حيّز الإمكان، لا يحواه مكان؛ سريع الانقباض بلا حركة، بطيء الانفعال بلا سكون، ضحوك السنّ بلا أسنان، فصيح البيان بلا لسان، مبلغ الوحي والإلهام إلى الأنبياء والأولياء العظام الكرام. فالزمْ بابه واغتنمْ خطابه وخطاب إخوانه التسعة.

(٣٠) واعلمْ أنّهم القوم الذين لا يشقى بهم جليسهم ولا يستوحش منهم أنيسهم، وهم خلاصة الوجود، المقرّبون إلى المعبود.

(٣١) فإذا صاحبتَ هذه العشرة الكرام البررة، وتخلّقتَ بأخلاقهم، وشاهدتَ أفعالهم، وارتقيتَ من واحدٍ إلى واحد، فربّما أشرقت عليك الأنوار القيّوميّة والآثار اللاهوتيّة. فتخلّص من ربقة الرقّ والحدثان، وتصل إلى القديم المنّان، وتستغني بالعيان عن البيان، وتصل إلى قوله ﴿إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[1] وقوله ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾[2]، وتقول بلسان الحال.

(٣٢) وكان ما كان ممّا لستُ أذكره، فظنّ خيرًا، ولا تسأل عن الخبر.

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٣.
(٢) سورة النازعات، الآية: ٤٤.